بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله الكريم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى كان أجود بالخير من الريح المرسلة ، وعلى آله وأصحابه الكرام الأطهار الأخيار .

وبعد ...

فإن البخل صفة ذميمة ، وهو عرض من أعراض النفس ، وغريزة من غرائزها، حيث قال عز وجل ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠] مع أن البخل يذهب المال ويوجد الحسد والبغضاء بين الفقراء والأغنياء ، قال تعالى : ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ .

[إبراهيم : ٧] .

وقضية الإيمان تدعونا إلى مجاهدة النفس بإخراجها من غريزة البخل إلى صفة الكريم ، فمن أسمائه تعالى الكريم ، قال تعالى : ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر : ٩] .

واللّه عز وجل يكرهُ البخيل كما يكرهه الناس ، مع أن اللّه غنىّ عن الناس أجمعين ، قال تعالي : ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا * ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ .

[النساء : ٣٦ - ٣٧] .

وقد سجل القرآن الكريم لوحة مدح وثناء من رب الأرض والسماء للأنصار الذين أكرموا إخوانهم المهاجرين فكانوا خير جار ، قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] وقد كان رسول اللّه ﷺ أجود الناس ، يعطى ولا يخشى من ذى العرش إقلالا ، ويسخو بكل ما يملك ، حتى قال له ربُّ العالمين : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾

[الإسراء : ٢٩].

وحَبَّبنا رسولُ اللّه ﷺ فى الاتصاف بالكرم ، فقال : « **إن اللّه جواد**

يحب الجود ويحب مكارم الأخلاق ويكره سَفْسَافها »[1] ، وقال « **ما من يوم يُصبح العباد إلا وملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أَعْطِ منفقًا خلفًا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا »**[2] وقال : « **اتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم »**[3] .

وقد أفرد الجاحظ البخل بالتأليف فى كتاب سماه « البخلاء » استطاع فيه أن يصورهم وليسوا بعيدين عنه ، بل من بيئته ومن خلطائه ؛ بل من خلصائه ممن سمع عنهم ، أو رويت له أخبارهم فى البخل والمنع ، وهو بهذا قد سبق الجميع فوضع فى هذا الكتاب أصول علم البخل وفلسفته .

وقد عشنا مع هذا الكتاب وأول اهتمامنا تصحيحه وضبطه ، ثم توضيحه وشرحه ، مع تخريج أحاديثه ، وتوثيق رواياته ، وعنونته ، فإن نكن قد وفقنا فلله الحمد والشكر ، وإلاَّ فلا يكلف اللّه نفسا إلا وسعها ، عليه توكلت وإليه أنيب .

المحقق : محمد على أبو العباس

(١) رواه الطبرانى والبيهقى والحاكم قال العراقى إسناده صحيح .

(٢) رواه البخارى . (٣) رواه مسلم .

المؤلف والكتاب

مولده ونشأته :

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب ، لقب بالجاحظ لجحوظ عينيه . ولد سنة ١٥٩هـ بالبصرة ، ولا نكاد نعرف عن أبيه إلا اسمه الذى يقرن باسم ابنه ، ولا نعرف عن أمه إلا أنها كانت تكفله ، وتنفق عليه وتتولى أمره ، ومن هذا يتبين لنا أنه فقد أباه صغيرا ، فتولت الأم رعايته وكفالته ، ونظرًا لما أحيطت به الأسرة من فقر فإن الجاحظ لم يعف من تحمل أعباء الحياة فبدأ يعمل ليكسب أسبابَ الحياة ، فكان يبيع الخبز والسمك فى إحدى جهات البصرة .

وهكذا أحاطت الأقدار به منذ مولده بيتم وفقر ، بجانب قبح أنكره المترفون الأثرياء ، ومع كل ذاك فقد مضى إلى الكتَّاب ليتلقى مبادئ القراءة والكتابة ، ويتعلم ما كانت الكتاتيب تقوم به لصبيان الطبقة الأولى ، ولقد أتيح له فى ذلك العهد - عهد الكتَّاب من المعلمين- مَن كان فى طبقة شحذت طبعه وألهبت تطلعه « كأبى الوزير » و « أبى عدنان » ، وهذان الرجلان فى سعة علمهما وقوة منطقهما أثارا الرغبة فى الجاحظ إلى أن يلتمس العلم فى أماكنه ، بجانب الجو العلمى والاجتماعى فى البصرة والذى هيأ لأفراد الطبقة الدنيا السمو بأنفسهم ، فمن هذه الطبقة خرج رجال العلم والأدب والدين والسياسة ، وقد أقبل « الجاحظ » يهيئ نفسه لمجد أدبى ، ورفعة اجتماعية ، وبهذا جمع بين الكسب للرزق ، وطلب العلم ، ومن هنا تكونت شخصيته ووجه الوجهة التى نراها فى أدبه ، وبلغ منزلة عظيمة فى شتى العلوم والفنون .

صفاته :

الجاحظ سريع البديهة ، كثير القراءة ، قوى الحفظ ، حلو الفكاهة ، له ذكاء خارق ، يسطع برهانه ، وله خيال رائع ، ووصف بارع ، وهذا يدل على عقل كبير ، وعلم غزير ، ومنطق سليم ، لا يتصنع ولا يتكلف ، وإنما يحقق ويتعمق ، وآثاره شاهدة ، ومؤلفاته لامعه باقية .

قال « ابن خلدون » : « سمعنا من شيوخنا فى مجالس العلم أن أصول فن الأدب وأركانه أربعة دواوين ، وهى : أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبى على القالى ، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عليها » .

وقال « أبو هفان » : « لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته » .

ولذا أقبل إليه طالبو العلم ، فأخذ يعلمهم ، ويناظر العلماء ، وكثرت صلات الخلفاء والوزراء به مما جعل ذكره يطير ، واسمه يلمع ، وصيته ينتشر .

العوامل التى أثرت فى تكوين شخصيته وعبقريته الفنية :

١- الحياة العاملة : البصرة لم تكن بالمدينة الصغيرة المحدودة ، ولم تكن الحياة فيها ساذجة ، بل كانت المدينة كبيرة واسعة زاخرة بأهلها الذين كانوا يتضاعفون ، وكانت الحياة فيها معقدة فوارة بشتى النزعات والنزوات ، فهى تجارية تستقبل أهل البادية مما جعل الأجناس المختلفة فيها ، ولكل جنس مزاجه وخلقه ، والاحتكاك فى أسواقها ، وبينما كان الجاحظ يلتمس رزقه اليومى كثر احتكاكه بتلك الأجناس فتكونت شخصيته الأدبية من طبائعهم وغرائزهم ونزواتهم ومنازعهم حيث أخذ موضوعات لكتبه .

٢- المربد : أحد أسواق البصرة ، أو هو سوق البادية فيها ، يأتى إليه أخلاط من الناس للتجارة ، أو التفرج من مشاغلهم ، أو التسوق فنشأت له تلك الصبغة الأدبية ، كما كانت فى عكاظ وذى المجاز ومجنة ، أسواق العرب فى الجاهلية ، وقد غلبت على هذا السوق الصبغة العربية البدوية ، وقد احتل مكانا فى الحياة الأدبية العلمية ، فكان لابد من التردد بين جنباته لتهذيب السليقة اللغوية ، ثم لتؤخذ اللغة نابضة عن هؤلاء الأعراب ، والجاحظ جذبته هذه الأشياء إلى هذه البيئة منذ الأيام الأولى ، فكان لهذا أثر واضح فى عباراته وتذوقه وفهمه ، وقد بقى يقرب البدويين ويكرمهم بذكرهم فى كتبه لما لهم من أثر واضح فى تفتيح عقله ، وتثقيف ذوقه الفنى .

٣- المسجد : منذ العهد الأول فى الإسلام ، والمسجد يعتبر مدرسة للعلم ، إلى جانب كونه دارًا للعبادة ومركزا للقضاء والشورى ، ففيه تتمثل الصورة العقلية والنزعات النفسية والتيارات الاجتماعية لما حوله ، وهكذا كان مسجد البصرة الجامع ترددت فى جنباته مجالس وحلقات تزيد وتتسع ، وأخذت مجالس الكلام تضع يدها على شتى المسائل ، واتصل الشعراء بالمتكلمين ، وأتاحت هذه المجالس لمسجد البصرة ذلك الجو العلمى الواسع ، وتلك الحياة الواسعة القوية ، وبجانب ذلك كانت مساجد الأحياء وأفنية الدور المتعددة تتسع لذلك النشاط العلمى الرائع الذي لم يمكن لمسجد البصرة أن يتسع له كله ، والبصرة كثيرة المساجد بجانب أفنية الدور التى اتخذت أماكن للعلم وحلقات للدرس .

٤- الأندية الأدبية : هى مجالس خاصة تنعقد فى دور الأمراء والأشراف والأغنياء ، وتمتاز بأنها كانت تدور فيها الأحاديث المختلفة وتنتشر وتشيع بين الناس ، يغشاها من يتصلون بجمهور المتأدبين ، وقد كثر عددها وتعددت ألوانها ، وأصبحت عاملا كبير الخطر فى تكيف الجو الأدبى بالبصرة .

٥- روح الشعب : توثقت الصلة فى البصرة بين الحياة العقلية والحياة العامة ، فمواطن الثقافة عامة متاحة لجميع البصريين لا فرق فى ذلك بينهم ، بل الطبقات الدنيا أوفر حظًا وأكثر إقبالا عليها ، ولقد حكى الجاحظ عن البحريين والعطارين من أصحاب الكلام .

وهذه الروح القوية فى الشعب البصرى أخذت ترتفع به إلى أمكنة السادة فأصبح منهم الكتاب والولاة والوزراء ، ثم هذه الروح دفعت إلى مواطن الثقافة وزاد الطموح ، وظهر طابع الروح الشعبية فى إمدادها للأدب بعوامل النشاط والقوة والحيوية .

٦- دكاكين الوراقين : الجاحظ من أكثر أهل عصره قراءة وحبًا للكتب ، والتماسا للمعرفة ، فلم يقع بيده كتاب إلا استوفى قراءته حتى إنه كان يكترى دكاكين الوراقين فيبيت فيها للنظر فى الكتب ، ولذا فإننا نعتبر بيئة الكتب من أعظم العوامل في تكوينه .

اتجاهه إلى التأليف :

اتجه الجاحظ إلى كتابة الرسائل وتأليف الكتب ، وبتلك الرسائل تنفست نفسه الفنية ، وبدأ الوراقون ينشرونها فى المدن والأمصار ، ووصلت شخصيته إلى المجد الأدبى الواسع العريض حيث وصلت إلى ما وراء حدود البصرة .

وبالتأليف خطا بتلك الصناعة خطوة جديدة ، وبالعقل الفذ سلك مسلكا جديرا به بعيدا عما كان موجودا من الجفاء والغموض والاقتضاب فلا رونق له ولا ماء فيه ، بل عالج هذا النقص الذى كان موجودا بأن جعل الكتاب شيئا مستقلا ، فجاء كتابه يجمع بين بسط العبارة وجمالها ، يقدم لجمهرة القراء جميعهم ، ولذا قال المأمون حين نظر فى كتابه عن الإمامة : « وهذا كتاب لا يحتاج إلى حضور صاحبه ، ولا يفتقر إلى المحتجين عنه فقد جمع استقصاء المعانى ، واستيفاء جميع الحقوق مع اللفظ الجزل ، والمخرج السهل ، فهو سوقى ملوكى ، وعامى خاصى » . وبهذا دخل الكتاب العربى طورا جديدا على يد الجاحظ .

كتبه :

كتب الجاحظ ما يقرب من خمسين ومائة من الكتب في مختلف المعارف ، ومن أشهرها كتاب البيان والتبيين الذى قدمه إلى القاضى أحمد بن أبى دؤاد ، وكتاب الحيوان الذى كتبه للوزير محمد بن عبد الملك الزيات فأجازه عليه ، وهو كتاب علم وأدب ، ومن أنفس كتبه « البخلاء » الذى نعيش معه نحاول إضافة تفيد القراء، ومن كتبه : القحطانية والعدنانية ، والموالى والعرب ، والصرحاء والهجناء ، وفخر السودان ، وطبقات المغنين ، وفضل هاشم على عبد شمس ، ومناقب الترك ، والشعوبية والفتيا ، وحجج النبوة ، ونظم القرآن ، وآى القرآن ، ومسائل القرآن ، وخلق القرآن ، والرد على المشبهة ، والرد على النصارى ، والرد على اليهود ، وفصل ما بين العداوة والحسد ، وكتاب البلدان ، والنساء ، ومن رسائله : الجد والهزل ، والتربيع والتدوير ، ومدح التجارة ، وذم عمل السلطان ، ورسالة القيان ، وغير ذلك مما خلفه من كنز ثمين ، يعتبر تراثا رائعا فى سجل الأدباء والمتأدبين .

وفاته :

بعد هذه الحياة الحافلة بهذا التراث العظيم اشتدت العلة بالجاحظ ، ولزم الفراش حين أقعده مرض الفالج والنقرس[1] . حدث المبرد قال : دخلت على الجاحظ فى آخر أيامه فقلت له : كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج لو حزّ بالمناشير ما شعر به ، ونصفه الآخر منقرس ، لو طار الذباب بقربه لآلمه ، وأشد من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها ، ثم أنشدنا :

أترجو أن تكون وأنت شيخ ... كما قد كنت أيام الشباب

لقد كذبتك نفسك ليس ثوب ... دريس كالجديد من الثياب

وبجانب ذلك أعباء الحياة التى ألجأته إلى الاستدانة ، وتوفى سنة ٥٥٢ هـ كما جاء فى تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ، وتاريخ الشام لابن عساكر ، وياقوت الرومى فى معجمه . وهكذا انتهت حياة الجاحظ ، ولكن شخصيته العظيمة قائمة مظهر قوة ، ومبعث فخر فى بيئات الأدباء والمتأدبين منذ موته وحتى الآن .

بنية الكتاب :

تنقسم نصوص كتاب البخلاء إلى فصيلتين اثنتين ، تشتمل الأولى على مجموعة من الرسائل تشكل ما يزيد على نصف الكتاب ، وهى رسائل ، ووصايا ، وردود مطولة ، بدأت برسالة « سهل بن هارون » ثم مرت بالكندى والثورى وغيرهم وانتهت بابن التوأم ، وتمتاز بالطول والإطناب ، وكثرة الأساليب الإنشائية ، والمقابلات ، ومحاولة التأثير فى المستقبل بشتى الوسائل . ففى رسالة « سهل بن هارون » نرى الهدف هو الدفاع عن عيش البخلاء ، وفى حديث خالد بن زيد نراه يوصى ابنه ويحثه على حفظ المال ، وفى قصة الحزامى نجدها مثالا فى التدقيق وإدراك الفويرقات ، وفى قصة الحارثى نلمس الهدف وهو حملة شديدة على الأكل والأكلة ، وفى قصة الكندى توضيح لأضرار وعيوب المستأجر على صاحب الدار ، وفى قصة ابن أبى المؤمل نرى البخيل يعلل قلة عدد خبزه ، ويكشف عن نفسه ، وفى قصة الثورى يظهر الإمساك الشديد والدعوة إليه ، وفى قصة تمام بن جعفر نرى الهدف رد جميع العلل والحوادث إلى الأكل ، وفى قصة أبى سعيد المدائنى نلمس الغرض ، وهو الموازنة بين الأشياء لمعرفة أقلها نفقة ، وفى قصة أبى عيبه نرى الشيخوخة والحرص على المال ، وفى رسالة أبى العاص بن عبد الوهاب الثقفى يذم البخل والبخلاء ، وفى رد ابن التوأم دفاع عن البخلاء ومذهبهم فى الاقتصاد .

---

(١) الفالج : الشلل النصفي فى شقه الأيسر ، والنقرس فى شقه الأيمن .

الفصيلة الأخرى :

تشكل هذه الفصيلة ما يقارب نصف الكتاب ، وهى عبارة عن عدد كبير من القصص القصيرة والنوادر البسيطة عن حياة البخيل وعيشه ، وهناك قصص مستقلة كقصة ليلى الناعطية ، والأصمعى ، وتتوفر فيها الأساليب الخبرية مع بساطة الجمل محاولا نقل المشاهد والأحاسيس ، وتضم طرف أهل خراسان لتبين المجتمع المروزى فى بخله ، وقصص المسجديين ، والهدف بيان أن البخل مذهب أخلاقى وفكرى ، وقصة زبيد بن حمير الصيرفى تبين الحرص حتى على أبسط الأشياء ، وقصة وليد القرشى وابن مازن تبين لؤم الضيافة ، وقصة أحمد بن خلف تحسس الفوارق فى القيم ، ثم هناك قصص وطرائف أخرى ضاحكة فى أماكن شتى .

أما القصص التى وردت منفردة فهى قصة ليلى الناعطية وتهدف إلى الاقتصاد فى الثياب وقصة أبى جعفر وتهدف إلى الاقتصاد فى الطيب ، وقصة خالد بن عبد الله القسرى وتهدف إلى ذم الأكل ، وقصة أسد بن جانى وتهدف إلى الاقتصاد فى تبريد البيت فى فصل الصيف ، وقصة العقدى والغرض منها لؤم الضيافة ، وقصة الأصمعى تبين انعدام روح التعاون . وبهذا العرض تعرفنا على طبيعة نصوص الكتاب فرأيناها فى قصص واحتجاجات ، وعرفنا مميزات كل منها ودورها فى الكتاب .

أسلوبه :

لأسلوبه رنين ، وطعم فريد فاق ما تتذوقه من كتابات القدماء المحدثين ؛ من العناية فى اختيار لفظ رشيق ، وتنسيق حلو ، وتصوير بارع فيه عذوبة وسلاسة ، وبلاغة ، ومعان كبيرة وحكم بالغة وبراعة فى الوصف ، وحجة تراها فى جدل ساحر ، وصياغة تبين البخلاء أحياء يتكلمون مع أن الأيام قد طوتهم فتسمعهم يعيبون الكرم بهذا الأسلوب الجميل .

ومع أن الجاحظ يسوق القصة أو النادرة أو الرواية بقوله « حدثنا أو أخبرنا » إلا أن القول له ، والأسلوب ليس لأحد سواه فيما رواه أو حكاه ، اللهم إلا القول المأثور أو الأثر المشهور ، أو الحديث النبوى ، أو الآية القرآنية .

ومع كل ذاك فهناك التواء فى تراكيب بعض العبارات وسقم فى تعبيرها اعترف به الجاحظ حين تركها لإرضاء أذواق البعض فى عصره .

طبعات الكتاب :

فعلى الرغم من تعدد طبعات هذا الكتاب ، والتى بدأت بطبعة المستشرق « فان فلوتين » سنة ١٩٠٠ ، ليدن ، ثم طبعة الأستاذين : أحمد العوامرى ، وعلى الجارم سنة ١٩٣٨ ، ثم طبعة الأستاذ / طه الحاجرى إلى غير ذلك من الطبعات ، فإن نقصا شاب هذه الطبعات تمثل فى عدم تخريج الأحاديث النبوية ، وإهمال تحقيق الروايات

بإرجاعها إلى مصادرها إلى جانب التقصير الواضح فى توثيق الشعر من خلال الدواوين والمعاجم ومصادر الأدب المختلفة ، ولقد حاولت تلافى هذا القصور فى هذه الطبعة معتمدا على نص طبعة العوامرى والجارم .

منهج العمل فى الكتاب :

١- تخريج الأيات من سورها بالمصحف الشريف .
٢- تخريج الأحاديث من كتب السنة .
٣- ضبط النص وتصحيحه .
٤- تعريف ببعض الأعلام .
٥- شرح الكلمات الصعبة بالرجوع إلى المعاجم .
٦- وضع عناوين تساعد القارئ على الفهم .
٧- توثيق بعض الروايات .
٨- توثيق الشعر من الدواوين والمعاجم .
٩- التعريف بالمؤلف والكتاب .

هذا واللّه أسأل أن يهدينا سواء السبيل ، وأن يلهمنا الرشد والصواب إنه نعم المولى ونعم النصير .

جمادى الأخرى سنة ١٤١٧
نوفمبر سنة ١٩٩٦

الفقير إلى اللّه أبو شيماء وتسنيم
محمد على أبو العباس